آليات البلاغة والحجاج من منظور نظرية المساءلة

- البيان والتبيين للجاحظ أنموذجا –

أ. قوادري عيشوش فاطمة زهراء

جامعة خميس مليانة- الجزائر

الملخص :

تعد نظرية المساءلة مسلكا منهجيا، وتقانة بلاغية تحفز التفكير وفق آلية الحجاج التي تساءل الكلام للقيام بعملية الاستنتاج سؤال/ جواب، استنادا على عاملين مهمين الضمني والصريح من خلال أشكال الإقناع والتأثير، تقتضي الاحتكام إلى مقاصد المتكلم ومقتضيات المقام، تأسيا على هذا الطرح المنهجي تروم مداخلتنا استقراء نظرية المساءلة من منظور البلاغة الجاحظية، تطرقا لدراسة تمثلات النظرية في الصور البلاغية، وقراءة آليات الاستمالة الخطابية للخطيب ومسوغات التأثير من منظور نظرية المساءلة.

الكلمات المفتاحية : البلاغة، الحجاج، نظرية المساءلة، المعنى الضمني، الصور البلاغية، الاستمالة الخطابية .

Abstract:

La théorie de la responsabilité est une approche méthodique et une technique rhétorique qui stimule la pensée selon le mécanisme des pèlerins, qui demande au discours d'effectuer le processus de conclusion, en se basant sur deux facteurs implicites et explicites importants à travers les formes de persuasion et d'influence. Approche thématique Notre conférence vise à extrapoler la théorie de la responsabilité de la rhétorique rhétorique, à étudier les représentations de la théorie dans des images rhétoriques, à lire les mécanismes de la prédication rhétorique et à justifier l'influence du point de vue de la théorie de la responsabilité.

Mots-clés: *rhétorique des pèlerinsThéorie de la responsabilité, sens implicite, images rhétoriques, préparation rhétorique.*

تروم هذه الورقة البحثية إلى قراءة الوعي المنهجي للفكر البلاغي لدى الجاحظ قراءة مغايرة للجهاز المفاهيمي، حيث تفتق الدرس البلاغي الحديث عن نظريات مختلفة واتجاهات متنوعة، تغيت الكشف رؤى جديدة تتوافق مع نظريات فلسفية، تستثمر فيها آليات نظرية المساءلة، باعتبار هذه الأخيرة من أبرز المباحث الفلسفية الغربية، قوامها معادلة حجاجية يستند طرفاها على السؤال والجواب بين المتكلم الذي يسعى للحصول على جواب من خلال سؤال ضمني مثير يحرك خلجات متقبله، وردة الفعل في أصلها جواب.

نظرية المساءلة في المنجز الغربي :

يعد ميار مؤسس هذا التوجه الفلسفي بما يسمى نظرية المساءلة أو "البروبليماتولوجي problématologie، واستلهم الفكرة من الذات الديكارتية المؤسسة للكوجيتو أنا أفكر إذن أنا موجود، الذي أرسى الحقيقة والإدراك، وبعد سقوط الكوجيتو تولدت عدة إشكالات لان كل جواب فاقد لمعناه، انطلاقا من هذا الوضع أسس ميار لمشروعه المساءلة التأسيسية"[1].

ويثبت من خلال مقولة ميار أن الخطاب هو " العقل المتكلم la raison parlante وأن ينزل فيه التفكير منزلة السؤال التأسيسي الذي لا يعتمد على المعطيات الما قبلية، التي يسعى إلى أن يكون مصدر الجواب الأولla réponse première وعنه تصدر النتائج لأنها في نظره لم تجب أن السؤال ماذا يعني أن نتكلم [2] la question de savoir ce que parle veut dire.

نتصور الموضوع حسب ميار أن" كل المحاولات والنظريات اللغوية لم تجب عن السؤال الجوهري ماذا يعني أن نتكلم؟ والسؤال في نظره هو الإمكانية الوحيدة التي يسمح بها السؤال عن جوهر الكلام، أما بقية الأحداث الكلامية فهي فرع من السؤال، فالحجاج عند ميار يتصل بطبيعة الكلام وبوظيفته التساؤلية، فالحجاج يشتغل باعتبار ضرورة تؤدي إلى نتيجة أو موقف نحمل الغير على اتخاذه إزاء مشكلة مطروح في سياق يوفر للمتخاطبين مواد إخبارية ضرورية للقيام بعملية الاستنتاج المتصل بالزوج سؤال/ جواب"[3].

وتجد الظاهرة تفسيرها من خلال نتائج ميار المتوصل إليها :

- عندما تساءل الكلام نجيب بأن عملية التفكير هي عملية المساءلة وإن استعمال الكلام الحامل لقدرة الفكر على المساءلة يعد فعل تفكير un acte penses .

- بإمكاننا الوصول إلى الجواب حينما نستفهم السؤال لكن السؤال بما هو سؤال لا يقد جوابا[4].

بناء على التأسيس السابق نلفي تفهما واضحا لنظرية المساءلة، وما يمتلكه من تلك الآليات والتقنيات التي تجعل ذهن السامع يستجيب للسؤال من خلال " استغلال ما في الكلام من طاقة وثراء، إن الكلام وهو يطرح الأسئلة لا تغيب عنه الأجوبة المرتقبة وهذا مطمئن لكنه مخادع كذلك[5]، من منطلق أن المتكلم يصبغ خطابه بوجهة مغرية إقناعية محضة.

إن هذا المنظور يفسر بمبدأ أن " دراسة السؤال المنفتح على الأجوبة المتعددة تتضافر المقاصد التداولية (ظروف انجاز الخطاب) والتأويلية (علاقة السؤال بالجواب) والبلاغية (الحجاجية أساسا)[6].

يرتبط فعل المساءلة بمقتضى العملية التواصلية " ففي فعل السؤال الذي يعكس هاجس ثقافة السؤال، وهاجس اللغة التي بها الحوار وبها السؤال من قبل المتكلم في إبراز سلطته الخطابية الطبيعية في موضع المخاطب المفترض، فهي كذلك مظاهر تقدير السؤال معبر أساس للمحاججة، والتي ينزاح بها إلى اعتبارات تتعلق بالمتلقي[7].

تنتمي الظاهرة حسب ميار إلى " مفهومين أساسيين في عملية الحجاج الضمني، والمصرح به، فالمصرح به هو ظاهر أما ما هو ضمني فتلك الإمكانات المختلفة للإجابة عن السؤال الواحد، ويرتبط بالحجاج والبلاغة بما يضمن تحديد أشكال الإقناع والتأثير بحسب مقصد المخاطب ومقتضيات المقام[8].

المساءلة الحجاجية من منظور الفكر البلاغي لدى الجاحظ :

تعنى الرؤية البلاغية بنية تصورية تعاين الهياكل اللغوية للحدث الكلامي ترتكز على صوغ الكلام وفنونه برؤى متجددة ويرتبط هذا المفهوم " أن جهود الجاحظ لم تكن تأريخا يعرض

ماضي الأمة وتراثها، وإنما هي حاضر ينبض بالحياة، ومستقبل يزهر بالأمل"[9]، بما تقدمه من مبررات منهجية تثير لدى المتلقي تداعيات تساءل تفكيره، وتحمله على الاستجابة والتجاوب.

يعد البيان والتبيين مدونة بلاغية ثمينة ذات طبيعة تساؤلية تشمل وظيفيا على مقاييس حجاجية تخاطبية وفق تقنيات بيانية مبثوثة في تضاعيفه، والتي تستوجب التصفح والتمعن لما بلغته من مراحل النضج و التقييس.

الإمكانات البلاغية التي تحتكم إليها فكرة مفاوضة المسافة :

تستند تصورات مفاوضة المسافة حسب ميار إلى " كيفية تعامل المخاطبين فيما بينهم إزاء المسائل المطروحة عليهم، وما ينجز من اختلاف أو اتفاق، وهذه المواقف مندرجة في صلب الاحتجاج"[10]، من أجل ذلك يرتبط حسب ميار بما تتوشح به الصور البلاغية من طبيعة تساؤلية ذات الصبغة الحجاجية .

ويستند هذا المعطى وجاهته من تخريج ميار على أن " الوجوه البلاغية تذهب إلى إبراز حضور ما وتوكيده أو تلطيفه كما تجلو للعيان ما قد نفهمه أو نعتبره غير مفيد"[11]، يلزم الفهم في هذا السياق على فاعلية الاسترسال الحسي للأوجه البلاغية، ومدارك استشعارها لدى المتخاطبين.

" تعني الصورة في هذا الأفق كل ما يترتب عن التشبيه والتمثيل والاستعارة والكناية مقروءة في ضوء الدراسات اللسانية الحديثة وقد تعدو ذلك كل إلى كل أساليب الوصف والتشخيص[12]، وتتنزل دعائم هذه الصور من خلال عدها حلية لغوية تسعى إلى " الإمتاع وفي الوقت نفسه تعد حاملات للحجاج لأنها تركز الفكرة وتطرحها طرحا مؤثرا ومقنعا"[13].

ووفق ما سبق تبيانه تعتمد إدارة الزخارف البيانية على خاصية التساؤل التي يكيل بها الجاحظ درجة التوتر في متلقيه، ومن ذلك معالجته لآلية المجاز .

يعتزي مفهوم المجاز كونه " استعمال اللفظ في غير ما وضع له قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي، وأن هذه العلاقة إذا كانت المشابهة بين المعنى الأصلي للفظ والمعنى المجازي الذي استعمل فيه فاستعارة فإذا كانت علاقة غير المشابهة فمجاز مرسل[14].

يعمق المجاز بجدوى جمالية المتجلية في وظيفة الإغراب، فهو " معقد وشائك يوصل إلى حدود الحرج وتتحول إلى لغة التواصل المقنن كلما ثار في وجهها سؤال النسبية[15].

تؤدي بنا الفرضية على أن المجاز " يخلق المعنى ويصدم كل من لا يشاطر المتكلم وجهة نظره، وهو طريقة التعبير عن الأهواء، والانفعالات، والمشاعر التي هي من صور الإنسان مثلما يكون المجاز صورة من الأسلوب"[16]، حيث يكون صاحبه وازعا حاسما في توجيه السؤال وإذعان السامع واستمالته.

نتصور الموضوع على شاكلة أن " المجاز يموت بالنسيان ويضعف بالاستحضار المسيطر، وينتعش بالتناسي، وركوب طريق التوهم، والادعاء، فالتناسي آلية تناقض النسيان والاستحضار معا"[17]، ومن مرتكزا ته التماهي الذي يعد حافزا من محفزات التجاوب، وسرعة الاستجابة نتيجة التطالب، والانجذاب لمحتوى المجاز المنسلخ عن جدر التواتر.

وللاستدلال على ما ذهبنا إليه نورد المثال التالي للجاحظ:

" من الكلام كلام يذهب منه السامع إلى معاني أهله وإلى قصد صاحبه، كقوله تبارك وتعالى (وترى الناس سكارى وما هم بسكارى) الحج3.

فالتصور لهذا الحال هو غاية في الغرابة والروعة إذ لا صحو ولا سكر، على السامع استيعاب المعنى المراد الذي هو غاية الإعجاز البياني، وهذا عمل المجاز الذي هو إبداع وخلق وتحفيز على التفكير"[18]

تأسيا على ما سبق ذكره، ننوه على تبيان ما يتضمنه المجاز من قوة حجاجية يستند فيها على طرفي المساءلة، تستند على فطنة تراسلية " فلا وجود لسؤال دون جواب وأن الضرورة الداعية إلى السؤال التي يمثلها هذا الجواب تحدث اضطرارا سيرورة شاملة يحيل فيها أحدهما على الآخر غن السؤال بما هو سيرورة للمساءلة هو دينامية مسار يتجه نحو الحل[19].

تعد الاستعارة من الزخارف البيانية التي تتسم بقوة حجاجية، وأهم عوامل التوقيع الجمالي المؤثرة في المتلقي، وأصدح الجاحظ مفهوما لها بقوله " تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه"[20]. ومن أمثلتها ما نورده في هذا السطر الشعري :

قوله وطفقت سحابة تغشاها تبكي على عواصها عيناها

يقول طفقت يعني ظلت على عراصها عيناها، عيناها هنا للسحاب وجعل المطر بكاء على طريق الاستعارة"[21]، الذي يدرك بعد تقليب النظر وخرق القشرة السطحية للفظ.

"المعنى الثاني هو الذي يحور في وقع الكلمة بحيث ينقلها أو يستعيرها من مجال لآخر، أو هو إدراك خاص للمفردة في ضوء علاقات متداخلة مع غيرها وهذا هو الاستعمال الشعري أو الانفعالي لها[22].ليفضي إلى قياس درجة التوتر حين يتلقى ألفاظه التي تبعث على الغرابة .

إن الغصون إذا قومتها اعتدلت ولن تلين إذا قومتها الخشب

فالبيت على تشبيه تعليم الأولاد وتربيتهم في الصغر بالغصون النظرة الطيبة، إذا أريد تقويمها كان ذلك سهلا ميسورا، كما شبه تعليم الأولاد وتقويمهم في الكبر بمعاودة تقويم ما اعوج من الخشب فإذا ذلك أمر صعب لا يتأتى بسهولة[23].

نلفي في البيت الشعري المساق بمسحة جمالية قوامها البناء الثنائي للمعنى بين تأمل الشيء وتأمل غيره من خلال عقد مقارنة تشبيهية يصل إليها السامع بعد قوة استولت على فكره وترامت به إلى بعد ثاني فتألف بذلك عاملا من عوامل التأثير الجمالي.

تجد الظاهرة تفسيرها من مبدأ أن الاستعارة " آلية من آليات الإقناع ضمن الوجهة الحجاجية للخطاب، فيتم لفت ذهن المتلقي وبالنتيجة نعطي للخطاب قوة الدلالية التأثيرية" [24]

تؤدي بنا هذه الملاحظة إلى أن " غاية كل حجاج أن يجعل العقول تذعن لما يطرح عليها أو يزيد في درجة ذلك الإذعان فأنجع الحجاج ما وفق في جعل حدة الإذعان تقوى درجتها لدى السامعين بشكل يبعثهم على العمل المطلوب[25].

تعد الكناية وجها جماليا من الأوجه البيانية، ونستدل على طرح الجاحظ في تحديد مفهومها بقوله " ومن البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة أن تدع الإفصاح بها إلى الكناية عنها"[26].

يمكن إدراج تأثير الكناية من خلال أسلبتها المنمقة المستثيرة والتي تكون " بحاجة إلى معرفة السبب والعلة في أبلغيتها وعندما كنينا المعنى زدناه في ذاتها، بل إننا زدنا في إثباته فجعلناه أبلغ وأكد وأشد[27].

أورد الجاحظ مثالا في هذا السياق بقوله في هذا السطر الشعري التالي:

فألقت عصاها واستقر بها كما قر عينا بالإياب المسافر

يعني كناية عن الإقامة والاستقرار[28].

إن مجيء الكلام على هذه الهيئة مرده " أن كل كناية تطور لا شيء تطويرا وصفيا إلى رحم هو لا شيء ينبت هناك"[29]، ويندرج وفق مسلك التمويه في المعنى يستشعره المتلقي التي تنقل نشاطه من درجة إلى درجة، وإشراكه في عملية الإنتاج عن طريق رد الفعل التي تعد من منظور نظرية المساءلة الجواب.

إذا اخضرت نعال نبي غراب بغوا ووجدتهم أشرى لئاما

يقول: فلم يرد صفة النعل وإنما أراد أنهم إذا أخضرت الأرض وأخصبوا طغوا وبغوا[30].

كما نلفي تفسير الظاهرة كون أن " تقنيات البصر بالحجة وهي الكناية إذا كان التصريح طريقة غير مأمون رغبة في تحقيق الغاية من الحجاج وهي الظفر بالخصم وتكون البصر بالحجة طريقة في انتقاء الحجج أثناء العملية الحجاجية [31].

ونتصور الموضوع على أن " السؤال يفترض ضمنيا وجود متسائل صريح أو يفترض بطبيعة الحال وجود متسائل ضمني يجيب المتكلم على أسئلته المتوقعة أو المطروحة [32]، ويرتبط ذلك بتعاطي المتلقي داخل الدائرة الانفعالية .

يومئ الاستنتاج السابق أن الإثلاج العاطفي " يجبر على أن يبحث في موضع آخر عن تأويل ثاني ولو متواقت مع التأويل الأول الذي يختزل أحيانا في تعابير أو في مقولبات هو الذي يقدم وسائل هذا التأويل الثاني"[33]، بما يفرضه من منهجية الاستدلال لتحقيق المقاصد الحجاجية.

"كلما أوغل المعنى في الغرابة فكلما ازدادت المعاني غرابة إلى الحد الذي يستنكر نبه المعنى لاستحالته أو تناقضه، كان ظهور الاحتجاج معه أعجب وأطرب وأخلب للعقول"[34]، ويجيء وفق الصوغ الخطابي للآليات البيانية المائزة، التي تروم إلى انبساط خلجات المتلقي باللفظ والمعنى الآسر.

تروم آلية الابتداع في اللفظ والمعنى إلى وظيفة التحريض والسحر، وتتنزل هذه " المعاني المبتدعة بكونها شبيهة بمسائل الحساب المجهول من الجبر والمقابلة، فكما أنك إذا وردت عليك مسألة من المجهولات تأخذها، وتقبلها ظهرا لبطن، وتنظر إلى أوائلها وأواخرها، وتعتبر أطرافها وأواسطها، وعند ذلك تخرج بك الفكرة إلى المعلوم، فكذلك إذا اورد عليك معنى من المعاني ينبغي أن تنظر فيه كنظرك في المجهولات الحسابية"[35].

فأساليب الإغراب آلية من آلية الشهوة واللذة التي تحرض الذهن على التعاطي، " لأن الشيء من غير معدنه أغرب، وكلما كان أغرب كان أبعد في الوهم، وكلما كان أبعد في الوهم...و الناس موكلون بتعظيم الغريب واستطراف البعيد"[36]

تؤدي بنا الملاحظة إلى أن " السياق هو الحجة والحجة تكون بمثابة الجواب الذي يقوم مقام النتيجة بالنسبة للسؤال، فمفهوم الحجاج عندما يبرر وفق ما يضمره السياق من أسئلة وما تحتويه من الحجج من أجوبة، فعرف الحجاج بأنه دراسة العلاقة القائمة بين القول المظهر والقول المضمر[37].

فالقول المضمر يعد عونا أساسيا في إنهاض النفس، تدليلا هذا المعطى كون " المصرح به هو ظاهر السؤال أما ما هو ضمني فتلك الإمكانات المختلفة للإجابة عن السؤال الواحد[38]، وعليه " تتأتى الإجابة بتجاوز ظاهر اللفظ الحامل، فالجواب سؤال في حد ذاته لأنه يحدد وجها واحدا من الجواب وتبقى بقية الوجوه متعلقة بأسئلة جديدة تطرح[39].

وتجد الظاهرة تفسيرها في طبيعة المساءلة البيانية التي ترتكز على وظيفة التفاعل الجمالية التي تستند على كفاءة الخطيب في حسن الانتقال، والابتداع، وتدركه الذات المتلقية للسؤال الضمني حسيا من منظور أن "المخاطب يتساءل عن مقصد المتكلم وعن سبب اقتران والاختلاف هو

أصل التساؤل، والحل في الجواب المفسر للتماهي الصوري (البلاغي) بين الطرفين ويؤكد ميار أن التماهي البلاغي هو الفضاء البروماتولوجي الذي يواجه المخاطب "[40].

العلاقات الخطابية :

معايير المساءلة في الأسلوب الحواري لدى الجاحظ :

" موضوع الحجاج هو المقام التحاوري والتداول والتحادث ويتحدد الحجاج في هذا المستوى في أربعة أطوار هي العرض والاعتراض والسؤال والحجج"[41].

تناول الجاحظ آلية الاستفهام، الذي يعد " من الوسائل الحجاجية المهمة التي تحفز المتلقي ويرتبط بعامل القصدية لأن المستفهم (المرسل) متى طرح سؤاله فإنه يدعو المتلقي إلى اتخاذ قرار ما بل إن الجواب حتى ولو كان معلوما يثير التساؤل حول المستفهم "[42].

يبسط الجاحظ مواقف حوارية تستند على السؤال والجواب وأولها أهمية كبيرة بالمعالجة كونها من صور الاستفهام التي تجعل المتسائل يحاور ويجيب .

يقول الجاحظ " كان الخطيئة يرعى غنما له، وفي يده عصا فمر به رجل فقال: يا راعي الغنم ما عندك؟ قال عرجاء من سلم يعني عصاه قال إنّي ضيف، فقال الخطيئة : للضيفان أعددتهما"[43].

" تكون خاتمة الحوار محققة للمراد ومغنية عن الفضول لأن المحاور تدّرج في الإجابة وترتيب الحجج من الأقل قوة إلى الأكثر وعندما لمس إلحاحا في السائل وشعر أنه يريد أن يذكر صورة الألفاظ وهيئة الكلام استفهم منه ثم رمى بحجيته فأقنع وأفهم"[44].

ومدار الأمر من هذا المعطى أن " الذي يستفهم أحدث فعلا تواصليا مع المتلقي باذلا أقصى طاقاته على إدراك المقصود في الخطاب"[45]، ففعل التساؤل يحرض على التفاعل بين طرفي المحاورين يعتمد فيها آليات إقناعية يحاول المتسائل أن يستجمع أدلة تشبع رغبته وتظهر مظهر الرضا بالجواب.

" إن الحجاج هو حملك المخاطب على الإقرار والاعتراف بأمر قد استقر عنده ثبوته أو نفيه ليعلم المتلقي ما هو مسؤول عنه وتقرر في نفسه مما يشكل قوة إنجازية ضاغطة"[46]، تستفز ذهن المتسائل ووسيلة المتكلم للحصول على الجواب.

العلاقة الثنائية المؤسسة بين المتكلم والمخاطب حول مسألة ما وحسب ميار هي الأخلاق/ السؤال/ الجواب، إن تعميق مابين المتكلم والمخاطب من مسافة أو تقليصها مرتبطة بدرجة بروز الخطاب[47].

والذي يمعن النظر في مقولات الجاحظ يلفي اهتمامه بالمتلقي ومقام الخطاب وطبيعة الغرض باعتبار اختلاف أوصافه بحسب الأسلوب بين السائل والمتسائل وماهية الحجة

" فالحجج قد تأتي تارة مثبتة للمعاني محققة لها وتارة مؤكدة للمعاني موضحة لها، وتارة مقربة للتحقيق والتثبيت، وخادعة للعقل موهمة بالصدق تارة أخرى، وذلك بحسب الأسلوب الذي تأتي فيه الحجة والمعنى الذي ترتبط به"[48].

ترجع مزية إخراج الكلام إلى "معرفة المتكلم بموافقة المخاطب أو رفضه أجوبته لا تكون إلا من باب التوقع تحدد معرفة الشخص كما تحدده كذلك ظروف المقام بما فيها المسألة المطروحة، إن صوغ السؤال بهذه الطرق يحتكم أساسا إلى ما يتصوره المخاطب من علاقات اتفاق أو اختلاف تربطه بغيره"[49]، يؤكد هذا الطرح إسناد حصول معايير الملائمة بين المتخاطبين لضمان سيرورة التواصل .

معايير المساءلة في البيان والتبيين:

شروط السائل : اهتم البلاغيون والنقاد بدور المرسل في عملية الإقناع ولذلك قالوا يكفي من حظ البلاغة أن لا يأتي السامع من سوء إفهام الناطق، وأن يكون المتكلم مقتنعا بالمعنى الذي يطرحه من صدق داخلي ووضوح خارجي للفكرة في الذهن[50].

و يسوقنا هذا الطرح إلى اهتمام السائل المعاني والمقاصد في تأليفها الذي ينال الحظ من الإفهام والوضوح، ومن أجل ذلك يسعى السائل لصوغ أسئلة معنوية متناسقة تبرز براعته التنظيمية العقلية.

تفضي الجهود التوقيعية في الوضوح النطقي، وهو ما يبينه قول الجاحظ بقوله " وكانوا يمدحون جهير الصوت ويذمون الضئيل الصوت، ولذلك تشادقوا في الكلام ومدحوا سعة الفم وذموا صغر الفم[51].

وتعد الوسائل غير لسانية أدوات تعبيرية إغوائية من بينها " حسن الإشارة باليد والرأس من تمام حسن البيان باللسان" [52]، التي تقوى على الإفهام والتوضيح .

تؤول بنا هذه الفرضية إلى عناية الجاحظ بالفطن البلاغية، التي تستوجب عناية من طرف الباحث، وأن يتسم بها في أوصاف القول بمقاييس المناسبة .

مراعاة مقام المتسائل : " إن تحديد مفهوم البيان ووظيفته هو الإطار الذي يحدد البنية اللغوية المناسبة لإنجاز تلك الوظيفة، وتحقيق ذلك المفهوم في مستوى اللغة، وانحصرت وظيفة البيان في الفهم والإفهام في بعديه المعرفي ولإقناعي (الاستمالة والاحتجاج)ثم ربطت الأداة بالموضوع، والمناسبة أي بالمقام الخطابي، وقد شرح الجاحظ ما يقصده بالموضع فأرجعه إلى أمرين :

1- أقدار المستمعين. 2- أقدار الحالات [53]، ونستشهد بطرح النقدي الذي يولي أهمية للمقام الخطابي نحو قوله " وينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، ويوازن بينها وبين المستمعين"[54].

نستشف تفهما جليا للفضاء الجامع بين المتكلم والمستمع لدى الجاحظ من خلال مطابقة الكلام لمقتضى الحال، فهو الذي يمنحنا الاستمرارية للعملية التخاطبية، والتأثر والتأثير في المقام الخطابي .

" الدخول في علاقة مع الغير بمعنى أن الذي يمدد ماهية الكلام إنما هو العلاقة التخاطبية، فالكلام يحمل سمة الخطاب، وهو حقل الحجاج الذي يدخل المتكلم المحاج في علاقة تواصلية مع الغير وهذا ما يدع مجالا لأن تكون دعوى معينة محط اختلاف واتفاق[55].

" فالأمر يتعلق بإيضاح المعنى القائم في النفس حتى يدركه الآخر وقد وصل الجاحظ إلى هذا المعنى انطلاقا من الوظيفة الأولى للغة وهي التواصل الكامن في الصدور[56].

و يبدو أن الجاحظ اهتم في هذا المقام بالمعاني وهي " المعاني القائمة في صدور الناس المتصورة في أذهانهم مستورة خفية...لا يعرف الإنسان صاحبه ولا حاجة أخيه وخليطه، وإنما يحيا تلك المعاني ذكرهم لها وإخبارهم عنها، واستعمالهم إياها وهذه الخصال هي التي تقربهم من الفهم وتجليها للعقل وتجعل الخفي منها ظاهرا، والغائب شاهدا والبعيد قريبا، وهي التي تلخص الملتبس وتحل المنعقد وتجعل المهمل مقيدا والمقيد مطلقا والمجهول معروفا"[57].

إن المتعمق في جوهر طرح الجاحظ يفهم الصوغ الروحي للمعاني من حسن الاختيار والتأليف في القوالب الملائمة لطريقة التعبير التي يحتكم فيها إلى دعامات تشكله .

ونلحظ أن " الجاحظ يقدم تصورا لبلاغة إقناعية قائمة على الصواب اللغوي والتوسط البلاغي في حوار مع المقام [58]، التي تعين وتوضح وضعية طرح السؤال الموجه إلى السائل ويثبت ذلك على " فهم جديد لأفكار المطروحة من أجل تدعيم قوة ما وبيانها إلى لجوء المرسل إلى آليات لإثبات الادعاء من أجل التمكن من هذا التأثير من خلال سمات لها علاقة بالمقام المعرفي"[59].

أعطت البلاغة الجاحظية للمستقبل قدرا من العناية والاهتمام، فهي تفصح عن حوار حيوي بين المرسل والمتقبل، وتوجيه المعنى والإجادة في الأسلوب بما يوافق مقتضى المتقبل بغية التواصل من خلال استغلالها في بعدها البلاغي" لأن مدار الأمر على البيان والتبين، وعلى الإفهام والتفهم، وكلما كان اللسان أبين كان أحمد، كما أنه كلما كان القلب أشد استبانة كان أحمد، والمفهم لك والمتفهم عنك شريكان في الفضل"[60].

مراعاة طبيعة السؤال : " اهتمام الجاحظ بالناحية اللفظية والعناية الشديدة بدقة اختيار الألفاظ وصنعة تنسيقها، حيث تدل دلالة تامة على المعنى وتطابقه مطابقة كاملة وهي موافقة عقلية يتطلبها منطق الأشياء كما أنها موافقة حاصلة تتناسب مع الواقع لأن الجاحظ واقعي في تفكيره واستخراج معانيه"[61].

" ومتى شاكل ذلك اللفظ معناه وأعرب عن فحواه، وكان لتلك الحالة وفقا ولذلك القدر لفقا، وخرج من سماجة الاستكراه، وسلم من فساد التكلف كان قمينا بحسن الموقع وانتفاع المستمع"[62]، بالتلطف والإثلاج المستساغ ونيل الحظ الأوفر من هوى النفس.

تمنح الألفاظ الجزلة القدرة على التأثير واستمالة القلوب بسحرها المؤثر لتكون مسوغا على التجاوب الجمالي " وتزين تلك المعاني في قلوب المردين بالألفاظ المستحسنة في الآذان، المقبولة في الأذهان، رغبة في سرعة استجابتهم"[63].

استنادا على ما سبق أن الصوغ الآسر للألفاظ يثير اللذة، التي تكون دافعا تأثر في نفوسنا تأثيرا خاصا من المتعة، وتمثل مرتكزا من مرتكزات العملية الإبداعية تمنح النص الأدبي الحيوية والفعالية.

ساهم الجاحظ بجهوده البلاغية والمنهجية تبلورت خلاله رؤية حداثوية نافت رؤى فلسفية، لتصب في مضامين تساءل الفكر بمقاييس بنائية تغياها في منهجه قوامها معادلة السؤال والجواب الضمني الذي ينطوي عليها شكل الأسلوب البياني البلاغي من خلال استهداف إثارة السؤال، التي تستلزم فعل الإدراك للمعنى الثاني تحفز بدورها على الجواب وهذا الأسلوب من أساليب المساءلة الضمنية، أما مستوى الهيكل البلاغي تستوجب المعايير التخاطبية مقتضيات مقامية، وأحوال نفسية مرهونة بالسائل والمتسائل وطبيعة المادة الكلامية التي يسأل بها، لترتقي النظرية البلاغية من حيز البيئة العربية إلى دائرة النظريات المعرفية العالمية مؤشرا على النضج الفلسفي والمنهجي لدى الجاحظ.

قائمة المصادر والمراجع :

1- أحمد مطلوب، بحوث بلاغية، مطبوعات المجمع العلمي، ب ط، بغداد العراق، 1417ه/ 1996.

2- حسن المودن، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية، مجلة جذور، ج8، مج 8، شوال 1427ه/ ديسمبر 2004.

3- حمادي صمود، وفريق بحث في البلاغة، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى يومنا، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، تونس ب ت.

4- عبد الرحمان حميدي المالكي، الحجاج في ضوء البلاغة القديمة والنقد الحديث، مجلة البحث العلمي في الآداب، العدد 19، ج2، جامعة الفيصل كلية الأمير سلطان، 2018.

5- عمر بن بحر محبوب الكنائي أبو عثمان الجاحظ، البيان والتبيين، تح: عبد السلام محمد هارون، 1985، ج1.

6- فوزي السيد عبد ربه العيد، المقاييس البلاغية عند الجاحظ في البيان والتبيين، مكتبة الأنجلو مصرية ب ط، القاهرة، 2005.

7- ليلى جغام، الحجاج في كتاب البيان والتبيين، إشراف: محمد خان، لنيل شهادة الدكتوراه علوم في علوم اللسان العربي، جامعة محمد خيضر بسكرة، كلية الآداب واللغات، 2013/2012.

8- مايكل ريفاتير، دلائليات الشعر، تر: محمد معتصم، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ط1، الرباط، المغرب، 1997.

مثنى كاظم صادق، أسلوبية الحجاج البلاغي، دار ومكتبة عدنان، ط1، بغداد، 2015. 9-

10- محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، إفريقيا الشرق ط2، المغرب، 2012.

11- محمد العمري، البلاغة العربية أصولها، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 1999.

12- ناصر بن دخيل الله بن فالح السعيدي، الاحتجاج العقلي والمعنى البلاغي، إشراف: إبراهيم شادي، لنيل شهادة الدكتوراه في تخصص البلاغة والنقد، جامعة أم القرى كلية اللغة العربية مكة المكرمة، 1425ه/ 1426ه.

13- هاجر مدقن، الخطاب الحجاجي في كتاب المساكين خصائصه وأنواعه دراسة تطبيقية في كتاب المساكين لرافعي، إشراف: جمال كديك، لنيل شهادة الماجستير تخصص الأدب العربي ونقده، جامعة ورقلة كلية الآداب والعلوم، 2002، 2003.

14- هدى عبد الحميد، الأساليب البيانية في كتاب البيان والتبيين للجاحظ، مجلة كلية التربية الأساسية، العدد 72، الجامعة المستنصرية، 2011

الهوامش:

[1]- ينظر: حمادي صمود، و فريق بحث في البلاغة، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى يومنا، جامعة الآداب و الفنون و العلوم الإنسانية، تونس ب ت، ص 388-389.

[2] - المرجع نفسه، حمادي صمود، ص 392.

[3]- حسن المودن، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية، مجلة جذور، ج8، مج 8، شوال 1427ه/ ديسمبر 2004، ص 80.

[4]- المرجع السابق، حمادي صمود، 392/ 393.

[5] - المرجع نفسه، حمادي صمود، ص 400.

[6]- المرجع نفسه، حمادي صمود، ص 401.

[7]- هاجر مدقن، الخطاب الحجاجي في كتاب المساكين خصائصه و أنواعه دراسة تطبيقية في كتاب المساكين لرافعي، إشراف: جمال كديك، لنيل شهادة الماجستير تخصص الأدب العربي و نقده، جامعة ورقلة كلية الآداب و العلوم، 2002، 2003، ص 125.

[8]- المرجع السابق، حمادي صمود، ص 394.

[9]- أحمد مطلوب، بحوث بلاغية، مطبوعات المجمع العلمي، ب ط، بغداد العراق، 1417ه/ 1996، ص 72.

[10]- المرجع السابق، حمادي صمود، 398.

[11]- المرجع نفسه، حمادي صمود، ص 397.

[12]- محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل و التداول، إفريقيا الشرق ط2، المغرب، 2012ص 204.

[13]- مثنى كاظم صادق، أسلوبية الحجاج البلاغي، دار و مكتبة عدنان، ط1، بغداد، 2015ص 163.

[14]- فوزي السيد عبد ربه العيد، المقاييس البلاغية عند الجاحظ في البيان و التبيين، مكتبة الأنجلو مصرية ب ط، القاهرة، 2005، ص 232.

[15]- محمد العمري، البلاغة الجديدة، ص 163.

[16]- حمادي صمود، أهم نظريات الحجاج، ص 394/ 395.

[17]- المرجع السابق، محمد العمري، البلاغة الجديدة، ص 178.

[18]- هدى عبد الحميد، الأساليب البيانية في كتاب البيان و التبيين للجاحظ، مجلة كلية التربية الأساسية، العدد 72، الجامعة المستنصرية، 2011، ص68.

[19]- عبد الرحمان حميدي المالكي، الحجاج في ضوء البلاغة القديمة و النقد الحديث، مجلة البحث العلمي في الآداب، العدد 19، ج2، جامعة الفيصل كلية الأمير سلطان، 2018 ص 14.

[20]- عمر بن بحر محبوب الكنائي أبو عثمان الجاحظ، البيان و التبيين، تح: عبد السلام محمد هارون، 1985، ج1، ص 153.

[21]-فوزي السيد، المقاييس البلاغية، ص 233.

[22]- - محمد العمري، البلاغة الجديدة، ص 210.

[23]- فوزي السيد، المقاييس البلاغية، ص 236.

[24]- مثنى كاظم، أسلوبية الحجاج البلاغي، 177.

[25]- عبد الرحمان بن حميدي المالكي، الحجاج في ضوء البلاغة، ص 10.

[26]- الجاحظ، البيان و التبيين، ج1، ص 88.

[27]- فوزي السيد، المقاييس البلاغية، ص 239/238.

[28]- المرجع نفسه،، ص 240.

[29]- مايكل ريفاتير، دلائليات الشعر، تر: محمد معتصم، منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية، ط1، الرباط، المغرب، 1997، ص 93.

[30]- البيان و التبيين، ج3، ص 106.

[31]- عبد الرحمان بن حميدي، الحجاج في ضوء البلاغة، ص 5.

[32]- المرجع نفسه، عبد الرحمان حميدي، ص 15/14.

[33]- المرجع السابق، مايكل ريفاتير، ص 156.

[34]-، ناصر بن دخيل الله بن فالح السعيدي، الاحتجاج العقلي و المعنى البلاغي، إشراف: إبراهيم شادي، لنيل شهادة الدكتوراه في تخصص البلاغة و النقد، جامعة أم القرى كلية اللغة العربية مكة المكرمة، 1425ه/ 1426ه ص 176.

[35]- المرجع نفسه، ص 181.

[36]- البيان و التبيين، ص ج1، ص 90/89.

[37]- المرجع السابق، عبد الرحمان حميدي، ص 15.

[38]-المرجع نفسه، ص 16.

[39]- حمادي صمود، أهم نظريات الحجاج الغربية، ص 396.

[40]- المرجع نفسه، ص 396.

[41]- ليلى جغام، الحجاج في كتاب البيان و التبيين، إشراف: محمد خان، لنيل شهادة الدكتوراه علوم في علوم اللسان

[41]العربي، جامعة محمد خيضر بسكرة، كلية الآداب و اللغات، 2013/2012، ص 73.

[42]- مثنى كاظم صادق، أسلوبية الحجاج التداولي و البلاغي،، ص 139.

[43]- الجاحظ، البيان و التبيين، ج2، ص 147.

[44]- ليلى جغام، الحجاج في البيان و التبيين، ص 75/74.

[45]- مثنى كاظم، أسلوبية الحجاج البلاغي، ص 141.

[46]- مثنى كاظم، أسلوبية الحجاج، ص 144.

[47]-المرجع السابق، حمادي صمود، ص 399.

[50]- المرجع السابق، ناصر بن دخيل الله،، ص 160.

[49]- المرجع السابق، حمادي صمود، ص 400.

[50]- المرجع السابق، ناصر بن دخيل الله، ص 232.

[51]- الجاحظ، البيان، ج1، ص 121/120.

[52]- المصدر نفسه، ج1، ص 78/ 79.

[53]- محمد العمري، البلاغة العربية أصولها، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 1999،ص 201.

[54]- الجاحظ، البيان و التبيين، ص ج1، 139/138.

[55]- المرجع السابق، عبد الرحمان بن حميدي المالكي، ص 18.

[56]- المرجع السابق، محمد العمري، البلاغة العربية أصولها، ص 194.

[57]- الجاحظ، البيان و التبيين، ج7، ص 75.

[58]- محمدالعمري، البلاغة العربية، ص 200.

[59]-مثنى كاظم، أسلوبية الحجاج التداولي، ص 72.

[60]- الجاحظ، البيان و التبيين، ج1، ص 11.

[61]- المرجع السابق، ليلى جغام، ص 66.

[62]- الجاحظ، البيان و التبيين، ج2، ص 8/7.

[65]- المصدر نفسه، ج1، ص 114.